الذي ظهرت فيه، ونمت، الصهيونية في أفكارها الاساسية، ومنظماتها الاولى، وذلك قبل عقد المؤتمر الصهيوني في بازل، العام ١٨٩٧، والذي يعتبر المؤتمر التأسيسي للحركة الصهيونية، حيث تمخّضت اجتماعاته عن ولادة المنظمة الصهيونية العالمية وبرنامجها. ولتقدير الاهمية التي لعبها ممثلو التجمّع اليهودي في روسيا القيصرية في ذلك، يكفي القول ان عدد مندوبي يهود روسيا القيصرية في المؤتمر، بلغ ٧٠ مندوباً من مجموع أعضاء المؤتمر، البالغ عددهم ٢٠٤ أعضاء[١٣].

وكان التجمّع اليهودي في روسيا القيصرية سجّل سبقاً على غيره من التجمّعات اليهودية الاخرى في العالم؛ اذ انطلقت منه موجات الهجرة الاولى لليهود نحو فلسطين، بقصد الاستيطان هناك. وعلى سبيل التدقيق، فان موجتي الهجرة، الاولى والثانية، اللتين وصلتا فلسطين بين العامين ١٨٨٢ و١٩١٤، كانتا، في غالبيتهما، من اليهود الروس، وقد قارب عدد المهاجرين في هاتين الموجتين الخمسين ألف مهاجر[١٤].

لقد استغلت الصهيونية، حتى قبل عقد مؤتمر بازل، على نحو واسع، «المذابح» ضد اليهود في روسيا، عقب محاولة اغتيال القيصر الروسي في مطلع ثمانينات القرن الماضي، ودفعت، من خلال اشاعة الذعر والمخاوف المرفقة بدعاية واسعة، اعداداً كبيرة من اليهود الروس الى الهجرة الى فلسطين. وعملياً، فان ذلك تمّ بالتفاهم بين الاجهزة القيصرية والصهيونية، وكان تعبيراً عن علاقات خاصة، وثيقة، ربطت بين المنظمات الصهيونية والسلطة القيصرية، وهو أمر، من بين عوامل أخرى، ترك بصماته على وضع اليهود في الاتحاد السوفياتي.

ان نشاط الصهيونية، ومنظماتها، الذي شهد تنامياً واضحاً وملحوظاً في ظل القيصرية الروسية، أخذ يواجه صعوبات متزايدة مع اتساع نفوذ وقوة الحركة الثورية هناك، وصولاً الى قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية، العام ١٩١٧، واعلان السلطة الجديدة في روسيا. ولا يكمن السبب المباشر لذلك في وقوف الصهيونيين الى جانب القوى المعادية للسلطة الاشتراكية فحسب، وانما بسبب التناقضات الايديولوجية القائمة بين الايديولوجيا الصهيونية والايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية التي اصبحت ايديولوجية السلطة الجديدة في روسيا.

واذا كان من الطبيعي ان يتّسع مدى الصدام بين الطرفين، فان احدى نتائج ذلك قيام السلطة السوفياتية باتخاذ اجراءات رادعة ضد المنظمات الصهيونية في البلاد، فتمّ حل هذه المنظمات، ومنعت نشاطاتها؛ كما قامت السلطة بغلق المدارس اليهودية التي تدرِّس اللغة العبرية، باعتبار ان التعليم اليهودي محصور بلغة اليديش، وهي المعترف بها لغة لليهود هناك. ثمّ اتخذت، لاحقاً، اجراءات تمّ بموجبها منع اليهود من المغادرة الى الخارج، وخاصة الى فلسطين، واعتبار كل من يدّعي بوجود حق له في فلسطين فاقداً لحقه في المواطنة السوفياتية[١٥].

ولعلّ ابرز الاجراءات الرادعة التي قام بها السوفيات، بعد حلّ المنظمات الصهيونية، اصدار السلطة السوفياتية، في ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩١٨، قرارات تقضي بملاحقة قيادات، وأعضاء، المنظمات المنحلّة، واحالة من اعتقل منهم الى المحاكمة، «بتهمة الانتماء الى منظمة شبه عسكرية مرتبطة بالدول الامبريالية»[١٦].

وفي سياق استكمال، وتعميق، الاتجاه المناهض للصهيونية، واعطائه أبعاداً جديدة،